مقدمة المؤلف للترجمة

المقدمات عادةً ما تكون آخر جزء يُكتب في الكتاب. والنزعة السائدة تجمع بين الإضناء والإباء. حيث تلخص الحجة التي سيتناولها الكتاب وتختتم بالشكر للمعلمين والزملاء والمؤسسات الممولة. أما بالنسبة للملخص، فهو لم يتغير كثيرًا من النسخة الإنجليزية إلى العربية.

التصوف هو النمط الكلاسيكي لما عُرف بـ«التصوف الإسلامي»، ولكن وفقًا للموروث نفسه والدراسات الحديثة، فقد نشأ عن حركة زهد سابقة ركزت على بساطة العيش والعبادات المضنية. وأهم الدراسات الأوروبية السابقة هي: دراسة لويس ماسينيون (Louis Massignon)، «مقال عن أصول اللغة الفنية للتصوف الإسلامي» (الطبعة الفرنسية المنقحة 1954م، الإنجليزية 1997م)، وتور أندريه (Tor Andrae)، «في بستان الآس» (السويدية 1947م، الإنجليزية 1987م)، وريتشارد غراملیش (Richard Gramlich)، «الزهد في الدنيا» (1997م). وتختلف دراستي عن هذه الدراسات السابقة من جهتين رئيسيتين: أولًا، التركيز على التغيرات بمضي الزمن، وثانيًا، الاعتماد بنحو أقل على المصادر الصوفية المتأخرة وبنحو أكثر على مصادر الحديث المبكرة، وخاصة مجموعات الزهد لابن المبارك وابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل وهنّاد بن السري، وكذلك كتاب «حلية الأولياء» لأبي نعيم.

يبدأ نطاق تغطية دراستي فعليًا بالقرن الثامن الميلادي، وذلك نظرًا للصعوبات الجمة التي تحول دون غربلة الأساطير من التاريخ المبكر، مما يجعل الكتابة عن

القرن السابع أمرًا بالغ الصعوبة. تحت عنوان «التقشف المادي»، ناقشت ممارسات مثل التقليل من الطعام والنوم. أما بالنسبة إلى التقشف الاجتماعي، فتناولت ممارسات كالعزلة عن المجتمع وارتداء الملابس غير المألوفة. وقد كانت العبادات التي يمارسها الزهاد أولًا، أشكالًا موسعة للعبادات المفروضة، مثل قيام الليل وتلاوة القرآن. وثانيًا، طور الزهاد أشكالًا جديدة من العبادات، مثل الذكر، الذي يتضمن تكرار عبارات قصيرة.

حجتي التاريخية هي أن الزهد في الواقع أقدم قليلًا من الثقافة الشرعية التي أصبحت سائدة باعتبارها النشاط المميز لعلماء الدين المسلمين. وبناءً على ذلك، فقد آثرت أن أخصص فصلًا عن الاستمرارية مع القديس المسيحي في أواخر العصور القديمة الذي شاع ذكره بفضل بيتر براون (Peter Brown)، مع اهتمام خاص بـ«الأبدال»، وهم أربعون رجلًا صالحًا يعول المجتمع على دعائهم، ويعدون مثالًا جيدًا على التداخل بين الزهد والثقافة الحديثية الناشئة. أما الفصل المخصص للسياسة فيسلط الضوء بطبيعة الحال على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، مبينًا دور الزهاد في محاسبة الحكام والأخذ بهم لتطبيق الشرع عند تقاعسهم عن القيام بواجبهم. ويعالج فصل آخر المسألة الاقتصادية المتمثلة في الدعم المادي اللازم لحياة الزهد، الذي يتعارض بالضرورة مع كسب لقمة العيش.

يتراءى لي أن مشكلة كسب لقمة العيش أحد الأسباب الرئيسة وراء تزايد انعدام الثقة في الزهد نهاية القرن الثامن؛ فقد كان من المعقول الدعوة إلى أن يقضي معظم المسلمين الليل في الصلاة عندما كانوا طبقة رفيعة في القمة تدعمها أغلبية من دافعي الجزية، ولكن لم يعد الأمر كذلك مع التحول الجماعي إلى الإسلام. وفي النهاية، خُففت حدة انعدام الثقة عبر تطور التصوف، وهو تقوى نخبوية صريحة لم تدع الجميع ليكونوا زهادًا يتعبدون بإضناء. كما مهد الطريق لتقوى صوفية سائدة تطور سياسة جديدة وقاهرة مع فقدان النخبة المدنية للسلطة لصالح الجنود المحترفين، وظهور مؤسسة جديدة للأوقاف الخيرية لإعالة علماء الدين ماديًا.

هذا الكتاب من تأليف أمريكي تكوَّن في مؤسسات أكاديمية أمريكية وبريطانية، بما

في ذلك جامعة أكسفورد بالمملكة المتحدة والمركز الوطني للعلوم الإنسانية بالولايات المتحدة. وقد يبدو من غير البديهي أن أعدّ نفسي، باعتباري شخصًا غير مسلم، وارثًا لموروثات أحمد بن حنبل والنوري. فلماذا يهمني هذا الأمر إذن؟ الجواب الأساسي يَكْمن في مقولة الكاتب المسرحي الروماني تيرانس (Terence): «أنا إنسان، ولا أعد أي شيء إنساني غريبًا عني». بإمكاني أن أفهم الحديث عن التخلي عن كل ما يصرف المرء عن الله، وأستطيع أن أفهم عدم الارتياح من تحريم شيء ما عندما لا يكون المرء متأكدًا من دليله الشرعي (فإن لم يكن هناك دليل، فإنه يتظاهر بأنه إله آخر).

لقد التحقت بالجامعة (جامعة كاليفورنيا سانتا كروز) راغبًا بدراسة تاريخ منطقة ما من العالم إلى جانب الولايات المتحدة وأوروبا. ووصلت إلى الشرق الأوسط بالصدفة، حيث استمتعت بما طرحه تيري بورك (Terry Burke) عن الشرق الأوسط الحديث. في البداية، كانت نيتي دراسة مشكلة تفوق أوروبا اقتصاديًا مقارنة بباقي العالم. إلا أنني وجدت أن دراسة الشرق الأوسط الحديث مسيسة للغاية (politi-cized). بدا أن الكثيرين يقصدونها أولًا لتعزيز توجه سياسي بعينه، وثانيًا لتطوير المعرفة الأكاديمية فحسب، ولم أكن أرغب في الجدال حول الإسرائيليين والفلسطينيين طوال الوقت. لذلك، وجَّهت دراستي زمنيًّا إلى الوراء. كما اتضح أن تاريخ الشرق الأوسط ما قبل العصر الحديث مسيس أيضًا، ولكن على الأقل فإن متطلبات تعلم اللغة العربية تمنع شريحة أكبر من الشداة من اقتحام هذا المجال.

اتجهت إلى دراسة تاريخ الفقه الإسلامي جزئيًا لغزارة المصادر المتوفرة فيه. إذ يمثل الفقه والتصوف المدرستين الرئيسيتين في الإسلام، وهما ما يميز الحضارة الإسلامية عن الحضارات الصينية والهندية والأوروبية. وبالرغم من ميل الأوروبيين لدراسة التصوف ميلًا كبيرًا، إلا أن ميلي الشخصي الذي يركز على الأخلاق أولًا جعلني أعتقد بأنني سأكون دارسًا أكثر تعاطفًا مع الموروث الفقهي. لذلك، كتبت أطروحة الدكتوراة عن تاريخ المذاهب السنية في الفقه. ومع ذلك، حافظت أيضًا على اهتمامي بالموروث الصوفي. وكان كتابي الثاني سيرة ذاتية لأحمد بن حنبل، الذي كان ورعه

الشخصي شديد الصلة بالأخلاق، ولكنه كان أيضًا مرتبطًا، وإن لم يكن بالتصوف الذي ازدهر فعليًا في الجيل الذي تلاه، بالحركة الزهدية في عصره. ويدور كتابي الثالث، الذي تتوفر الآن ترجمته العربية، حول طبيعة وتاريخ تلك الحركة الزهدية.

تتسم أبحاثي بارتباط وثيق بتقاليد الأكاديميا الأوروبية، ممّا قد يُضفي على بعض الموضوعات التي أُناقشها غرابة على القارئ العربي. فيظهر مثلًا اسم ماكس فيبر (Max Weber) بصورة لافتة في مناقشاتي للزهد والتصوف. بينما يبرز كارل ماركس (Karl Marx) بروزًا خافتًا، كما يتضح في اهتمامي بتحديد الترتيبات الاقتصادية التي من شأنها أن تساعد على تنمية المختصين في التصوف. لقد ركز التيار الماركسي على المصالح المادية للطبقات الاجتماعية. بينما أضاف فيبر بُعدًا مهمًا يتمثل في التركيز على المصالح المُثلى للفئات الاجتماعية. وعلى الرغم من التأثير الواسع لهذين المفكرين الألمانيين في الدراسات الحديثة باللغة الإنجليزية، إلا أن حضورهما في الدراسات العربية الحديثة لا يزال محدودًا نسبيًا.

الدراسات المقارنة للأديان هي مجال متطور بنحو جيد في أوساط الأكاديميا الأوروبية والأمريكية، بينما يقل انتشارها بنحو ملحوظ في الدراسات العربية. ولقد قدم المترجم ملخصًا لتاريخ الدراسات الأوروبية حول التراث الزهدي الإسلامي، ومن الغريب إدراج موضوع تأثير الإسلام في اليهودية، إذ يبدو لي غير ذي صلة إلى حد كبير. لكنه يعكس على ما يبدو موضوعًا رئيسًا في الدراسات الإسلامية المعاصرة، ويهدف أساسًا إلى الدفاع عن الإسلام ضد بعض تبعات الدراسات المقارنة للأديان. يقدم القرآن نفسه على أنه يصحح التقاليد الكتابية؛ لكن الدراسات الأوروبية الحديثة تهدد بأن تعكس ذلك الوضع، ومن ثم تجعل التراث الإسلامي تاريخيًا منبثقًا عن التراث المسيحي واليهودي. ويُعَد لويس ماسينيون من أعظم المستشرقين، وأفخر بأن أضمه إلى «سلسلتي» العلمية؛ فقد كان أحد الأساتذة الرئيسيين لجورج مقدسي (George Makdisi)، أستاذي الأول. جادل ماسينيون بقوة بأن التصوف هو تطور إسلامي داخلي، وليس غرسًا من تقاليد فارسية أو هندية، وتطور من خلال التأمل في القرآن. وإنني

لأوافق بشدة على أنه لا يمكن قَبول فرضية الأصول الفارسية والهندية، لكن تمسكه بهذه النقطة كان جزئيًا لإقناع المسلمين المعاصرين باحترام التصوف، حيث كان يميل الكثير منهم (وليس فقط علماء أوروبا الأوائل) إلى اعتبار التصوف شيئًا غريبًا.

تشير أوجه التشابه اللغوية، إضافة لأمور أخرى، إلى أن الموروث الإسلامي الزهدي هو في الغالب تطور بديل للتقليد الرهباني اليوناني-السرياني الذي واجهه أوائل المسلمين بوصفه نموذجًا واضحًا للحياة الزهدية الصارمة. ومن الواضح أنه من الأيسر على العلماء غير المسلمين مثلي فهم هذا التقليد مقارنة بالمسلمين المعاصرين. ويعود هذا السبب جزئيًا إلى أن المسيحيين تعايشوا لحقبة طويلة مع فكرة أن المسيحية هي تطور من اليهودية القديمة والفلسفة الهيلينية، وجزئيًا لأن التقاليد العلمية الأوروبية لها خلفية بروتستانتية قوية في استعدادها لنقد التقاليد. اعتبرت الكنيسة في العصور الوسطى نفسها محكومة بالروح القدس، لذلك إذا كان العهد الجديد قد قبل الأساقفة المتزوجين ولكن الكنيسة بمضي الوقت أصبحت ترفضهم، فهذا يعد وحيًا جديدًا. شكك البروتستانت في سلطة التقاليد، مقترحين بدلًا من ذلك مبدأ « sola scriptura» أي: (بالكتاب المقدس وحده). وفي سياق القرن التاسع عشر، أصبح من المفهوم أن الكتاب المقدس نفسه كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتقاليد. فالمسيحيون الأوروبيون المعاصرون يشعرون بعدم الارتياح تجاه سلطة الكتاب المقدس، لكن على الأقل كان لديهم بعض الوقت للتكيف مع هذا الشعور بعدم الارتياح وقد وجدوا بعض التعويضات. حتى الآن، يبدو أن قلة من المسلمين قد وجدوا أي تعويضات للتفكير في أن تقاليدهم قابلة للنقاش.

لقد أوضح جوناثان براون (Jonathan Brown) بعض الأسباب الرئيسة التي تجعل ما يسميه المنهج التاريخي النقدي «Historical Critical Method» يؤدي بالضرورة إلى نتائج غير مريحة للتقاليد الدينية[1]. ويعد مبدأ «القياس» هو البديهية

(1) Jonathan A. C. Brown, Hadith (Oxford: Oneworld, 2009), 200-3.

التي ترى تساوي جميع العصور، بحيث يمكن القول مثلًا، إنه إذا ثبت تأثر الناس في الماضي القريب بعوامل مادية، فينبغي أن ينطبق الأمر نفسه على الناس في الماضي البعيد. وهذا يُشكِّل صعوبة خاصة للموقف العقائدي السني القائل بأن الصحابة كانوا استثنائيين (impeccable)، على خلاف أي جيل لاحق من المسلمين. أما مبدأ «عدم التشابه» فيقترح أنه عندما تكون هناك روايات متعددة لشيء ما، فإن الرواية التي تتفق مع الأرثوذكسية اللاحقة هي الأكثر احتمالًا أن تكون إسقاطًا للآراء اللاحقة على الماضي. فإذا وجدنا سجلات تفيد بأن مسلمي القرن الثامن دعوا إلى نوع معين من الفقه، ومسلمي القرن التاسع دعوا إلى نوع آخر، فإن مبدأ عدم التشابه يجعل من الافتراض القوي أن اقتباسات القرن التاسع للنبي ليست إعادة اكتشاف للفقه الإسلامي الأصلي، بل إسقاطًا لمفاهيم القرن التاسع على الماضي. وكما رأى براون، فإن هذه البديهيات أُجريت على الكتاب المقدس قبل القرآن والحديث، لذا فإن عدم ارتياح المسلمين اليوم لجولدتسيهر (Goldziher) وشاخت (Schacht) مشابه لعدم ارتياح جيل سابق من المسيحيين لباور (Baur) وفلهاوزن (Wellhausen).

وثمة صعوبة إضافية تَكْمن في طبيعة البحث في أوساط الأكاديميا الغربية. أولًا، تعتمد منح التفرغ والترقية إلى حد كبير على نشر أبحاث أصلية. ثانيًا، لا يُشاد بأي باحث لمجرد تعزيزه للمفاهيم السائدة. بل يحظى الباحث بالتقدير من خلال تغيير الطريقة التي يفكر بها الناس في مجال معين، وكلما كان التحول أكبر، زاد التقدير. وإحدى النتائج السلبية لهذا الأمر الكثرة المملة من المقالات التي تبدأ بالادعاء أنه لم يعالج أي شخص لبيب الموضوع المطروح قبل الآن، أو بتلخيص الوضع الحالي للمسألة (الذي ستتناوله المقالة الحالية) بسخافة لم يعلنها أحد فعليًا. ونتيجة أخرى هي أنه كلما سعى الباحثون الأصيلون إلى تحقيق أصالتهم بصدق، كلما زاد بحثهم المستمر عن نقاط الضعف في المفاهيم المشتركة. إن المسلمين الذين يشتكون من العداء لدينهم يخطئون الهدف، الذي لا يَكْمن في تشويه سمعة دين، بل في جعل

الناس يلاحظون روابط لم ينتبهوا إليها من قبل. ومع ذلك، ينبغي الاعتراف بأن من المحتمل أن تكون الأبحاث الأصيلة غير مريحة للمؤمنين.

لا أملك أملًا شخصيًا في حل مثل هذه الصعوبات. وختامًا، أود أن أتقدم بالشكر إلى مترجم كتابي، محمد مجدي السيد، الذي قام بدور المراجع الدقيق المجتهد في التحقق من المصادر التي استشهدت بها. وقد حلت الآن الاقتباسات الدقيقة محل الاقتباسات غير الدقيقة في النسخة الإنجليزية. فمن أقدار عمل الباحثين أن تصبح أعمالهم قديمة بمضي الوقت، لكني آمل أن يكون هذا العمل أساسًا مفيدًا للبحوث المستقبلية.

كريستوفر ميلشيرت